الفصل العشرون

صوت الفرسان

«من صوت الفارس ورامي القوس كل المدينة هاربة.
دخلوا الغابات وصعدوا على الصخور»

إرميا: 4/ 29

في الوقت الذي كان يصعد فيه نجم صلاح الدين فوق العالم الإسلامي كان ثمة نجم آخر على وشك الظهور على مسافة آلاف الأميال فوق أقصى بلاد في أواسط آسيا وأكثرها عزلة. ولكنه نجم مشؤوم قدر له أن يزداد بريقاً بشكل مطرد، حتى سيطر وبعث الرعب في امم العالم بين بحر الصين إلى المحيط الأطلسي، وفي سنة 1167 ولدت زوجة زعيم مغولي صغير اسمها يسوغاي Yesugai ابنها في مخيم في مكان ما على نهر أونون شرقي بحيرة بايكال، وشمال صحراء غوبي، أما والده فكان في ذلك الوقت يقاتل قبيلة في مناطق التتر التي كان رئيسها تيموجين، وبعد أن فاز في القتال، وقتل غريمه عاد تحت جناح الانتظار ليخبر بمولد ابنه، وعندما ذهب ليراه كان الطفل يقبض على علقة دم في يده، ولسبب غامض اعتقدت يسوغاي أن في ذلك تأكيداً رمزياً لانتصاره على التتار، وقررت تسمية الغلام تيموجين بعد موت الرجل، ولكن هذه الأخبار على الأقل رواية تقليدية، ونشأ الطفل في عالم متقشف بين الرعاة البدو في هضاب آسيا حيث شاعت حالات الفقر والبؤس وحياة الحروب القبلية، وكانت سياسة بقاء الأصلح حقيقة من حقائق الحياة. وعندما أصبح الغلام في التاسعة تسمم والده، ولكن الشكر يوجه لعناية أمه حتى كبر وأصبح

يتولى شؤونه بنفسه، وتابع القيام بأعمال تتسم بالفعالية الوحشية والقاسية حتى حقق في خلال سنين قليلة سياسة همجية ساد بها القبائل المغولية، وأخضعها في سلسلة حروب مشتغلة، وفي ذلك الوقت أصبح في التاسعة والعشرين عندما نُصّب خاناً على كل المغول واتخذ لنفسه لقب جنكيز.

وأطلق على جنكيز خان لقب نابليون الهضاب، فمن الناحية الجسمانية كان رجلاً طويلاً ذا عيون تشبه، كما قيل، عيون القطة، كما كان جندياً ورجل إدارة لامع وعبقري، وقد وهبته الطبيعة على ما يبدو قدرة هائلة وقوة عظيمة على الثبات والتحمل، كما كان لديه نوع من النفوذ يسحر به ويسيطره على رجال زمانه الذي امتلكه أيضاً الاسكندر المقدوني وعشرات آخرون خلال العصور، وهم أولئك الذين كانوا ـ من حسن حظنا ـ قلائل، ويكمن معيار إنجازاته أنه أنشأ إحدى أوسع وأكبر إمبراطوريات شهدها العالم، وقد قام بذلك خلال إحدى وعشرين سنة فقط، وربما كانت الإمبراطورية عملاً بطولياً فذاً بالنسبة لحاكم دولة منتظمة جداً، ولها تاريخ طويل حافل بالبراعة العسكرية غير أن المغول كانوا بداة برابرة يفتقرون إلى حكومة مركزية وإلى التنظيم بالإضافة إلى أن تاريخهم الطويل حافل بالحسد القبلي المجزأ، أما صفتهم الوحيدة فهي القساوة لأن حياتهم كانت قاسية مثل الهون قبلهم كانوا يعتلون خيولهم القصيرة بفظاظة ويسوقون قطعان ماشيتهم وأغنامهم التي اعتمدوا عليها المعيشة إلى مراعيهم القديمة إلى الشمال صيفاً، وباتجاه الجنوب شتاء عابرين الصحاري والجبال في طرقهم في شكل حياة تتسم بقلة الراحة والطعام وقلة الهدوء والسكينة لكبح جماحهم، وبعد أن وحد تلك القبائل المغولية في أمة واحدة تحت سلطته عمد جنكيز إلى استخدامهما في السيطرة على قبائل بدوية أخرى وعشائر مختلفة حوله التي كانت معظمها تركية مثل قبيلة كرايت والنيمان والايغور التي قاومت الخضوع والفتح والاستبعاد، ولكنها رضخت واحتفظت لنفسها بتنظيمها القبلي الوراثي تحت سلطة زعمائها في حين كانت تابعة لنفوذ الخان العظيم نفسه، كما أصبح يدعى.

وكان جيشه في أوج زمانه ضخماً حيث اعتاد المؤرخون التحدث عن ضمه نصف أو ثلاثة أرباع المليون رجل غير أن معظم الباحثون هذا اليوم يعتبرون تلك الأرقام مبالغ فيها، وحتى لو كان ذلك فإنه على الأرجح يقارب ثلاثمائة أو أربعمائة ألف رجل قبلي تركي مغولي، معتلين خيولهم الصغيرة السريعة ومسلحين بالرماح والأقواس، وانتظموا في مجموعات من عشرة آلاف رجل يشكلون وحدة تعمل مستقلة بسرعة وحركة دون اعتبار كامل للخطر، أو لا مبالاة بالموت أو دون رحمة، فقد كانت جماعات مرعبة ومنيعة فعلي لعدة سنوات، وكتب المؤرخ النيوزيلاندي ج.ج ساوندرز: «وحتى اليوم، وبعد انحطاط فترة سبعة قرون فهي لا تزال شيئاً رهيباً ومثيراً للرهبة حول هذه القبيلة الأكثر رعباً من جمع الهجمات البدوية على المجتمع المتمدن..، إنها سلسلة أحداث عنيفة أنجزت في خلفية مروعة من الدماء والدمار لم يشهدها العالم منذ أيام المذابح الآشورية كما لم تر مرة ثانية حتى قدوم ممثلي الإبادة الجماعية النازيين الذين قتلوا ملايينهم في عهدنا الكئيب[1]»، وليست هذه مبالغة، ففي حزيران 1222 قوضت بعد حصار مدينة هراة الكثيرة السكان، والكبيرة في أفغانستان التي نهضت في ثورة ضد أمرائها المغول، وذبح جميع سكانها البالغين عدة مئات من الألوف رجالاً ونساء وأطفالاً كتحذير ضد التمرد أو ثورات أخرى ممكنة واستمر القتل أسبوعاً، ولم يدع جنكيز خان نفسه «سوط الرب» عبثاً حيث كانت قسوته جزءاً من سياسته المدروسة في نشر الرعب أمامه، ولذا خاف الناس الذين هاجمهم بمجرد ذكر اسمه وكانوا مستعدين للخضوع قبل ذلك أيضاً.

وبعد أن عزز حكمه بشكل فعلي على جميع القبائل البدوية في آسيا الوسطى، حول جنكيز انتباهه إلى شمال الصين وفي سنة 1215 فتح الامبراطورية الصنية وعاصمتها بكين، وأخضع في السنين التالية بقية

(1) يقتضي الحال إضافة المذابح التي قامت بها الصهيونية في فلسطين والشرق الأوسط.

المقاطعات والدويلات الصغيرة في آسيا الشرقية، وفي سنة 1219 تحول إلى الغرب وقام بغزو الامبراطورية الإسلامية للأتراك الخوارزميين، التي امتدت من نهر الهندوس شرقاً إلى الخليج العربي غرباً وخوزستان جنوباً وروسيا شمالاً، ورغم حقيقة أن الأمير المسلم محمد شاه تمكن من وضع أربعمائة ألف رجل في المعركة، إلا أن جنكيز هزمه هزيمة تامة، وبعث سقوط هاتين الامبراطوريتين رعشة خوف سرت خلال العالم، وخاصة في العالم الإسلامي، فإذا كانت مثل تلك الدول التي كانت تعتبر كل منها دولة تامة القوة، غير قادرة على الدفاع عن نفسها فأي أمل بالخير للناس كباراً وصغاراً؟ وحاول المسيحيون التأكيد لأنفسهم ألا خوف عليهم لأنه سرى الاعتقاد أن المغول - إن لم يكونوا مسيحيين فهم على الأقل يحتقرون بشكل مرضٍ المسيحيين، ولكن عندما غزوا مملكة جورجيا المسيحية في أوائل السنة الجديدة من 1221، وهزموها تماماً أصبح المسيحيون خائفين مثل أعدائهم المسلمين، وقبل أن يموت، أرسل جنكيز جيشه في غارة عدائية ضخمة إلى أعماق روسيا الجنوبية، حيث دمرت جيشاً روسياً كبيراً على ضفاف نهر الكلكا، ونهبت الكثير من الغنائم من الأوكرانيين والكريميين قبل تقهقرها، وحاول الناس مرة ثانية التأكيد لأنفسهم أنها مجرد غارة فريدة لا يمكن أن تتكرر، وعندما جاء خبر موت جنكيز في سنة 1227 شعروا بعد ذلك مباشرة أن الوضع السيء قد انتهى، غير أنهم كانوا على خطأ.

وبعد سنتين من التنافس الحكمي على التوالي أصبح أحد أبناء جنكيز واسمه أوكتاي امبراطوراً (خاناً) عظيماً مكان أبيه، واتضح مباشرة للجميع أنه قاصد في تبني نفس سياسة والده في التوسع الإمبراطوري، وأنه لن يفسح مجالاً للحريات أن تجري مع سلطته، وفي الحال عاقب بعض المتمردين الصينيين واضطهد بوحشية تامة الأتراك الخوارزميين الذين استغلوا فرصة موت جنكيز للثورة، وفي 1237 غزت الجماعات المغولية روسيا الجنوبية مرة ثانية، وبعد عدة أعوام إجتاح المغول أوكرانيا وبولندا وقاموا بأعمال قتل ونهب

وتضييع ثروات، ووصلوا إلى لاينتز Liegnetz في سليسيا غرب بريسلوا على مسافة خمسة وستين ميلاً حيث هزموا القوات المشتركة لملك بولندا وفرسان التيوتون في شرق ألمانيا، حتى لم يعد بينهم وبين أوروبا الغربية شيء يذكر، غير أن المغول تحولوا إلى جهة الجنوب ودمروا مورافيا وهنغاريا أوكرانيا حتى ساحل البحر الأدرياتيكي، حيث أنقذ موت أوكتاي المفاجئ بقية أوروبا من قدر مشابه. وعندما هدأ الغزو المرعب أخيراً تراجع ضجيج الفرسان المغول إلى داخل آسيا، وتركت روسيا الجنوبية تحت سيطرة الجماعة الذهبية، مذكرة بقية بلاد أوروبا بالقدر الذي نجت منه تقريباً إلى حد ما.

أما الدين الرسمي للمغول فقد كان دينا بدائياً هو عقيدة الكهنة والرهبان الشامانيين الذين اعتقدوا أن العالم آهل بأعداد كبيرة من الأرواح الشريرة والخيرية التي يمكنها السيطرة على العالم بالسحر عن طريق أولئك الكهنة، أما المسيحيون النساطرة فقد انتشروا بشكل واسع خلال آسيا خلال القرون السابقة، وقد نال العديد منهم مناصب هامة في الإمبراطورية المغولية، وشجت النسطورية كبدعة في القرن الخامس لادعائها بمبدأ يقول إن للمسيح طبيعتين الأولى ناسوتية والثانية لاهوتية بينما دافع بقوة رجال الكنيسة التقليدية (الأرثوذكسية) عن المسيح في أنه شخص واحد له طبيعتان ربما تكون الأولى مغفوراً لها لأجل التفكير في أن هذا الاختلاف اللاهوتي بين النساطرة الأوائل وخصومهم التقليديين (الأرثوذكسيين) هو أكثر من قضية تعريف لفظي منه إلى المادة أو البنية الخطيرة، ولكن لم يفكر أحد مثل ذلك في ذلك الوقت، ولذا كان النساطرة مضطهدين بشكل خطيرة، ومع ذلك فإنهم وجدوا في آسيا ملجأ لهم من معذبيهم، وتطورت الكنيسة النسطورية، ومال جنكيز نفسه إلى تأييد المسيحيين النساطرة والتعاطف معهم كما تزوج بعض أبنائه أميرات نسطوريات من قبيلة تركية دعيت الكرايت التي تحولت إلى الديانة المسيحية قبل قرنين من الزمن، وكان حاكم الكرايت في أيام جنكيز رجل دعي طغرل، وبدا في ذلك الوقت أنه اتخذ لقب أون خان، ولعلها تحريف عن جوهان Johann الذي

أحدث أسطورة برستوجون Presterjohn الملك الشرقي المسيحي القوي العظيم الذي زحف نحو الشرق، لإبداء المساعدة لإخوانه المسيحيين في صراعهم ضد الإسلام.

وليس في الإمكان المبالغة في تأثير أسطورة بريستر جون، بسبب أنها كانت ما أراد المسيحيون في الغرب أن يؤمنوا به، كما كان من الصعوبة بالنسبة لأي شخص الشك في وجود إمبراطور مسيحي يساعدهم في تدمير العالم الإسلامي في مكان ما بعيد ومجهول في أعماق آسيا، وكتب أسقف من عكا إلى البابا حول هزيمة الأتراك الخوارزميين يخبره أن الحرب في آسيا الوسطى تستعر من «قبل ذلك الذي يناديه الناس برسترجون»، وتقبلت تدريجياً مع مرور الأيام فكرة احتمال موت بطل الأسطورة، وبقي الإيمان في الحقيقة المستمرة لقوة مسيحية عظيمة في آسيا ثابتة كالسابق، وفي الواقع كانت فكرة هامة جداً إلى درجة أنها كانت أحد الأسباب الرئيسية للحملة الصليبية التالية التي حدثت من جهة أولى على الأقل كيلا تضيع فرصة الهجوم على العالم الإسلامي في الوقت الذي كان يتوفر فيه ذلك الحليف القوي لتقديم المساعدة في دماره، كما لم يكن لويس التاسع صاحب فرنسا مستعداً وراضياً لأخذ الصليب فحسب بل تواقاً أيضاً للقيام بتأدية الشكر لشفائه من مرض خطير، وأن الوقت قد حان لذلك دون شك، وفي آب 1248 أبحر من أجيوس ـ مورتين إلى الغرب من كامارجس بينما ركب جيشه المؤلف من خمسة عشر ألف إلى عشرين ألف رجل من المينا القديم في مرسيليا وهم ينشدون نشيداً صليبياً قديماً تحت عنوان الروح الخالق.

ومضت ما يقارب عشرين سنة منذ رحيل الامبراطور فريدريك هوهنستاوفن وترك الأرض المقدسة وسط الملاحظات الساخرة والإهانات من قبل الشعب في عكا، وكانت تلك الفترة عبارة عما دعي بـ «الفوضى القانونية»، ضاعت خلالها عشر سنين من السلام ضمنتها معاهدة فريدريك مع السلطان في حرب أهلية، وانفجرت بعدها حرب جديدة مرة أخرى بين الإفرنج

في المماليك الصليبية وجيرانهم المسلمين، ودعمها وجود جيش ضخم من الأتراك الخوارزميين الذين نجوا من تدمير المغول، وفي صيف عام 1244 اجتاح عشرة آلاف فارس تركي بلاد الجليل وهاجموا القدس التي سقطت في أيديهم بعد صراع قصير، فنهبوها بدون رحمة، وتبع سقوط القدس وقوع معركة مفجعة في غزة عندما هزمت قوة من المصريين والخوارزميين الجيش المسيحي بشكل مزعج، ولحسن الحظ أنه كان لدى المنتصرين مشاكل خاصة بهم، وأنقذ النزاع المرير في المعسكر الإسلامي، المسيحيين من خذلان تام، وتراجعوا إلى داخل مدينتهم الساحلية المحصنة حيث كانوا قادرين على الصمود في الوقت الذي تحول فيه أعداؤهم من الهجوم عليهم إلى قتال بعضهم بعضاً.

وكان لويس التاسع ابناً للويس الثامن وحفيداً للملك فيليب أوغسطس مات والده عندما كان في الثانية عشرة، وأصبحت أمه الملكة بلانش أوف كاستيل التي تعلق بها تعلقاً شديداً وصية على العرش خلال سن قصوره، وقد نشأ ليصبح رجلاً دينياً بشكل عميق ومخلص حتى إن فولتير اعتبر الاعتراف المتعاقب به كنسياً أمراً مسوغاً، وكان في الرابعة والثلاثين عندما أبحر إلى الشرق، واتصف بطول جسمه النحيف وشعره الأشقر، وضعفه قليلاً، ولكنه كان ذا قوة شخصية هائلة، ووصف بأنه أكثر ملوك العصور مثالية، فقد كان فارساً بارعاً مغواراً في القتال، وبطلاً عنيد العداوة غير متحيز عند تأكده من عدالة قضيته، وناسكاً مكرساً نفسه لخدمة الرب كأكثر الناسكين والزاهدين، كان يصوم بانتظام، ويحب الخطب والمواعظ كما كان يستمع إلى قداسين يومياً، وجميع الطقوس الدينية الأخرى، وينهض عند منتصف الليل كل ليلة ويهيء للصلاة Mattins في كنيسته ويطوف بنفسه حتى عند الارتحال على ظهر دابته يغني مع الكهان كل الساعات، أما في الصيف فهو لطيف وساحر بالنسبة لأصدقائه حيث يتقرب إليه الرجال بسهولة، ورغم جميع هذه الفضائل والمزايا فإن لديه جانباً آخر من شخصيته كان لا يروق كثيراً للآخرين، فهو بين الحين

والآخر كان يصب جام غضبه في شكل ثورة غاضبة، وربما بلغ من الصرامة إلى نقطة لا تحتمل مع أولئك الذين اعتبرهم أشراراً، وفوق ذلك كان أباً مستبداً بالنسبة لأطفاله وزوجاً قمعياً بالنسبة لزوجه مرغريت أوف بروفنس، ذات الروح السامية والمرحة كثيراً.

ولعل مرغريت كان لديها شعوراً بالمرح بالنسبة لزوجها، ويخبرنا جوان أوف جونيفيل مؤرخ الأحداث الرئيسي للحملة الصليبية السادسة بقصة تبدي كثيراً من هذا الجانب:

«لا بد أن تعلم ـ عزيزي القارئ ـ أن الملكة سمعت أني كنت في رحلة طويلة للحج، وقد جلست معي بعض الآثار المقدسة وأرسلت لها مع أحد الفرسان أربع قطع من قماش مخملي (قماش ناعم من الحرير ووبر الجمال) اشتريتها من أجلها، وعندما دخل الفارس جناحها ركعت على الأرض أمام قطع القماش التي رزمت بقطعة قماش من الكتان الأبيض، وجثا الفارس عندما رأى الملكة تفعل ذلك على ركبتيه فوق الأرض، وقالت له: «انهض أيها الفارس الطيب إنه ليس من اللائق أن تجثو على الأرض وأنت حامل هذه الآثار» وأجابها الفارس «سيدتي! إنها ليست آثار مقدسة بل قطع من قماش مخملي أرسلها سيدي» ولدى سماع الملكة ذلك الكلام انفجرت ومعها بقية السيدات في الضحك، وصرخت قائلة: «ليأخذ الشيطان سيدك لجعله إياي أركع من أجل رزمة قماشي مخملي ناعم».

ولكن هذا الحس الفكاهي لدى مرغريت لم يكن الشيء الوحيد الذي جعل زواجها من لويس صعباً. فقد كانت والدة الملك الملكة بلانش حماة لا تطاق كما اعتقد جوان أوف جونيفيل.

«وكانت الملكة بلانش تعامل الملكة مرغريت بقساوة حادة جداً إلى درجة أنها لم تسمح لابنها في رفقة زوجه.. وكان القصر الذي أحب الملك الشاب وزوجه العيش فيه في بونتوا. وهناك كانت غرفة الملك في الطابق

الأعلى أما غرفة الملكة فتحتها تماماً، وقد رتبا أمرهما بحيث كلما رأى الحاجب الملكة بلانش تقترب من مكانهما يسارع إلى قرع باب الملكة بأعصيتهم المميزة وبذلك يولي الملك الأدبار بسرعة ليصعد إلى غرفته، وهكذا تراه والدته هناك. ومرة كان الملك إلى جانب زوجه في وقت خطير بسبب الجروح التي أصابتها في الولادة فقدمت الملكة بلانش إلى غرفتها وأخذته من يده وقالت له: «ابتعد من هنا أنه ليس من شأنك أن تتواجد هنا» «فصرخت الملكة مرغريت لدى رؤيتها الملكة بلانش تبعد الملك قائلة: «سواء أكنت حية أو ميتة فإنك لن تدعيني أرى زوجي».

أبحر لويس والأسطول الفرنسي إلى قبرص التي وصلها في منتصف أيلول وكان وضع خططه بعناية تامة وجمعت كميات هائلة من الخمور والحبوب في الجزيرة في انتظار وصوله، ووصول جيش الممالك الصليبية الذي قدم لملاقاته هناك، ولم يستغرق وقت طويل ليقرر لويس والأمراء القادة أن هدفهم العسكري فتح مصر التي كانت أضعف عقدة في سلسلة دفاعات العالم الإسلامي كما كانت جائزة ثرية بما يكفي لإغراء أي فاتح، وقد رغب لويس القيام بالهجوم عليها مباشرة، ولكنه اقتنع بعدم المخاطرة في ركوب البحر في الوقت الذي ما زال يحتمل فيه هبوب عواصف الشتاء وتوقف الجملة كلها من أجل تمضية الشهور القليلة القادمة في قبرص، وقبل حلول عيد الميلاد ابتهج الجميع بوصول مبعوثين من القائد المغولي في الموصل حاملين رسالة مليئة بالتحيات وتعابير التأييد للحملة المسيحية ضد المسلمين، ولم تكن هذه المرة الأولى التي يحصل يها الاتصال مع المغول، فقد أرسل انيوسنت الرابع الذي أصبح بابا سنة 1234 سفيره مع راهب دومينيكاني جون أوف بيان الكاربيني إلى بلاط الخان العظيم كي يهديه إلى العقيدة المسيحية الحقة، وبعد تكبد رحلة مغامرة عبر روسيا وهضاب آسيا وصل إلى قراقورم حيث رحب به الرجل العظيم نفسه بكل لطافه. ولكن حالما كشفت محتويات رسالة البابا إليه صرف جون من المكان بأسلوب فظ، محملاً إياه رسالة إلى البابا تأمره

بالاعتراف بالخان العظيم كسيد له، وتخبره بالقدوم وأداء البيعة له، وبسبب تلك السابقة غير المشجعة قام لويس بالترحيب بالسفراء المغول بحرارة. وأرسل في الحال مبعوثه إلى بلاط الخان العظيم مع توجيهات السعي لحلف عسكري معه، وعين راهب دومينيكاني دعي أندور من لونجومير كان يتكلم العربية بطلاقة كسفير أول، وانطلق هذا كما ينبغي في رحلة طويلة تفوق مسافتها أربعة آلاف ميل إلى صحراء غوبي، ولكن نجاحه لم يكن بأعظم من جون أوف (بيان الكاربيني) واستقبل بكل لطافة، كما قبلت هداياه بشكل لبق، وعاد برسالة تقترح إمكانية رغبة لويس في إرسال أتاوات إلى الخان العظيم سنوياً، وخاب أمل الملك بشدة ولم يتخلى عن أمله في استخدام مساعدة المغول في حرب ضد الإسلام في المستقبل، وفي أثناء ذلك حان الوقت بالنسبة له لمغادرة قبرص والإبحار إلى مصر.

ولم يكن الأمر سهلاً كما توقع لأنه كان ثمة نقص في السفن ومع منتصف سنة 1249 جمعت مراكب كافية لنقل الجيش إلى مصب نهر النيل، غير أن عاصفة بحرية شتتهم خلال مسير رحلتهم ووصل الملك مع بعض رفاقه قبل أن يتمكن الأسطول من التجمع ثانية وترقبهم الجنود المسلمون المدافعون عن الساحل ورفض لويس انتظار الجيش الرئيسي قبل محاولة الترجل إلى البر، وترجل من السفن مع رجاله وخاضوا إلى الشاطئ للاشتباك مع العدو، فنشأت معركة عند الساحل ورغم قتال الإفرنج بدون طائل، كان لا يزال البعض يتخبط في مياه البحر، ،صد الانقضاض القوي الأول للفرسان المصريين، وتدبروا أمرهم بإقامة رأس جسر ساحلي، ورغب لويس في قيادة هجوم معاكس مباشرة غير أن رؤساء أشد هدوءاً نصحوه بالعدول عن ركوب مخاطر غير لازمة وسرعان ما برهنت الأحداث صحة نصيحتهم، وكان فخر الدين ابن الشيخ، القائد المسلم، صديقاً للإمبراطور فريدريك الثاني، وقد كبر قليلاً عن القيادة العسكرية في المعارك، رأى إخفاق هجمات فرسانه فأمر رجاله بالانسحاب في سلام من أسوار دمياط. وعندما وصل المدينة وجد المواطنين في حالة فزع

وبدلاً من شحذ همتهم من جديد، قرر التخلي عنهم وعن المدينة وتركهم لقدرهم.

ولما رآه سكان المدينة يخرج مبتعداً استنتجوا أن كل شيء خلفه وراءه إلى خسارة، ونقلوا معهم أكبر عدد من ممتلكاتهم مخلفين جسراً من الزوارق فوق نهر النيل سليماً دون أذى، وعندما وصل الإفرنج بعد ساعات وجدوا المدينة مهجورة وأبوابها مفتوحة، فكادوا لا يصدقون ما رأت أعينهم. هذا واستغرق صليبيوا الحملة الخامسة أربعة عشر شهراً للاستيلاء على دمياط، وكان كل ما تعين على هؤلاء عمله أن ساروا عبر الجسر للاستيلاء على المدينة، ولم يكن مدهشاً لدى دخلوهم المكان قيامهم بغناء أنشودة فيها تأدية تسبيحة الشكر لانتصارهم.

كان لويس محظوظاً لكنه لم يكن لديه نية في ارتكاب غلطة بيلاغيوس في غزو مصر بينما كان النيل في حالة فيضان، ولذا مكث في دمياط في انتظار انخفاض النهر، وكان هذا قراراً صائباً غير أنه ترك الجيش تحت رحمة العطالة ووطأة صيف مصر، ولم يقم الصليبيون بأي شيء مفيد في حين كان الطعام إلى نقصان متزايد، كما أخذ المرض دوره وتضررت معنويات الجنود، وعندما بدأت مياه النهر بالانخفاض بدأ شعور بالراحة وزاد لدى إعطاء الأوامر في منتصف تشرين الثاني بالتقدم نحو القاهرة، ووصلت أمدادات جديدة كان من بينها جيش صغير من الصليبيين الإنكليز تحت قيادة ايريل منطقة سالسبري، وأعداد أخرى من الفرنسيين تحت قيادة أخي الملك الأصغر الفونسو أوف بواتو وبذلك ارتفعت معنويات الجميع عندما زحف الجيش خارجاً من دمياط، جاء ذلك مرة أخرى ليبرهن عن مشاركة الرب فقد مات السلطان المس بعد ثلاثة أيام، وكان أحد أحفاد صلاح الدين وحمل اسم العائلة «أيوب» ولم يكن رجلاً محبوباً، ولكنه كان حاكماً قديراً، وكان فقدانه عبارة عن نكبة فاجعة للمصريين لولا الاجراء المباشر من زوجة الأرملة السلطانة التي كانت أصغر من زوجها الأخير، وقد كانت أمه أرمنية الأصل، أما اسمها فكان شجرة الدر

وبتستر من بعض موظفي القصر ووزراء الدولة بما فيهم فخر الدين أخفت حقيقة موت السلطان، وبقي المماليك يقدمون ويذهبون كالعادة ووقعت المراسيم، وأجيب عن المطالب واستمرت أعمال الحكومة تصرف يوماً بعد يوم كما أن السلطان ما زال حياً يرزق، ولم يحرز أحد خارج نطاق الدائرة الصغيرة من أصدقاء السلطانة أن أيوب المسن في قبره، وعندما انكشف أخيراً سر شجرة الدر كانت مع فخر الدين قابضين على السلطة بقوة وبشكل متين، وتم حل الأزمة التي كانت ستحدث بسبب موت السلطان، ومع ذلك فعندما سمع الصليبيون بموت أيوب رأوا أن يد الرب قد زالت عن قائد حشود الشيطان.

كان تقدم لويس حذراً لأن طريقه كان متشابكاً بالقنوات، ولم يعتزم أن ينخدع حرسه عندما عبر الجيش تلك الطرق المائية الواحدة بعد الأخرى، ووراء معظمهم العدو والبحر الصغير، وهو فرع من النيل نفسه، وعندما وصل الإفرنج إلى المكان قبل عيد الميلاد أصدر لويس أوامره إليهم بإقامة معسكر فوق الضفاف المقابلة لمدينة المنصورة، وحاول الصليبيون لفترة ستة أسابيع إقامة سد على النهر يُمكنهم من عبوره غير أن المصريين أمطروهم بالقذائف والحجارة الكبيرة، والنيران الإغريقية في وقت عملهم، ورغم أنهم انتقموا بشكل بسيط غير أن بعض التقدم تم وأجفلتهم النيران الإغريقية كثيراً، ووصف جوان أوف جونيفيل طيرانها خلال الهواء «مثل علبة كبيرة ذات ذيل طويل في طول الرمح، وبدت وهي تصدر ضجيجاً مثل الرعد، مثل التنين... أما في الليل فتنشر ضوءاً قوياً إلى درجة تمكن من رؤية الأهداف في معسكرنا بوضوح كما في النهار»، وكانت النيران الإغريقية تحدث دماراً هائلاً في آلات الحصار الخشبية، وتنزل افدح الخسائر وتعين التخلي أخيراً عن محاولة إقامة سد عبر النهر، وإيجاد وسيلة أخرى للهجوم على العدو.

وقد أتى بها شخص مصري قدم إلى المعسكر وعرض على الصليبيين أن يريهم مخاضة عبر البحر الصغير إذا دفعوا له خمسمائة قطعة ذهبية مسبقاً،

وكان الرجل صادقاً في كلمته، وعند فجر يوم الثلاثاء الموافق 8 شباط 1250 قاد لويس القسم الأكبر من جيشه عبر النهر في حين قام بحراسة المعكسر دوق برغندي، وتم العبور ببطء، ورغم الأوامر الصارمة ألا يتم الهجوم على العدو حتى يعبر الجيش كله قرر أحد إخوة لويس واسمه روبرت أوف ارتو تجاهلها، وعلى أمل أن يتخذ المبادرة تجاه العدو، قاد هجوماً من ألف وخمسمائة فارس ضد المعسكر المصري في الوقت الذي كان فيه باقي الصليبيين يخوضون القناة، وبدأ الهجوم أول الأمر ناجحاً بشكل باهر، فقد كان المصريون غير متيقظين تماماً كما كان بعضهم ما زال نائماً بينما كان آخرون متجردين من بعض ملابسهم، كما كان فخر الدين يخضب ذقنه بالحناء بعد حمام الصباح، عندما خرج فرسان فرنسيون وفرسان الداوية وايريل أوف سالسبري ورجاله في قفزة كبيرة بين ظهرانيهم، وقتل فخر الدين وفر أولئك الذين نجوا من نفس القدر في حالة فزع في اتجاه المنصورة بحثاً عن الأمان.

ولو أن روبرت أوف ارتو انتظر أخاه لويس لينضم إليه عند تلك النقطة كما حثه على ذلك المقدم الأكبر للداوية ووليم أوف سالسبري لكان تاريخ الحملة الصليبية شيئاً مختلفاً تماماً، غير أن رفض وبدلاً عن ذلك اتهمهما بالجبن وانطلق خلف المصريين الناجين وتبعه فرسان الداوية وسالسبري، وكان ذلك خطأ فادحاً. وعندما تدفق الفرسان المسيحيون إلى داخل الأزقة الضيقة في المنصورة أصبحوا أهدافاً لأعدائهم الذين قذفوهم بقطع الأثاث وأوعية الزيت والخمر وأي شيء وقع تحت أيديهم على رؤوسهم، بينما هاجمهم آخرون في مكان محصور من الأزقة الضيقة في المدينة حيث قاومت بعناد، وتراجعت الخيول وصهلت عالياً من الخوف، ولم يعد لديهم مجالاً للمناورة، حتى لم يبق من المئتين وتسعين فارساً غير خمسة فقط، وقتل وليم أوف سالسبري وجميع رجاله الانكليز وحبس روبرت أوف ارتو ورجاله المقربون إليه في منزل حيث قاتلوا مدافعين بكل ضراوة وشجاعة، غير أن الأعداء كانوا أعظم وهزموا وذبحوا عن آخر رجل منهم.

ونقلت أنباء هذه الهزيمة الفاجعة في شوارع المنصورة من قبل رجل باق مجروح في المعركة. أما كونت بيتر أوف بريتاني فقد عاد الوقت المناسب بالنسبة للملك الذي رتب جنده فوق ضفاف البحر الصغير في استعداد لمقابلة هجوم محتوم منتظر كثيراً، وهجم المماليك تحت غطاء من وابل من السهام التي جرحت أو قتلت عدداً كبيراً من الرجال الفرنسيين الذين صمدوا وأمر لويس بهجوم معاكس من قبل الفرسان المسيحيين المدججين بالسلاح، وانحسر القتال في النهار ولم يكن لدى أحد أية فكرة عمن فاز ومن خسر، وترك جوان أوف جونيفيل الذي قاتل في تلك المعركة وصفاً حياً للقتال مثل سلسلة من صور ملونة بحبر داكن:

«وأصاب فريدريك أوف لوبي رمح دخل بين كتفيه وقد أحدث جرحاً بليغاً تدفق من أثره الدم فوق جسده مثل ثقب في برميل، كما أصابت ضربة من سيوف العدو منتصف وجه ايرارد أوف سايفيريري. فقطع أنفه الذي تدلى فوق شفتيه. وفي تلك اللحظة خطرت إلى بالي فكرة عن القديس جيمس فصليت له.. كان المسلمون يضربون ويجرحون المسيحيين بالسيوف والقضبان الشائكة وبدأوا يضطرونهم إلى التراجع إلى النهر، وكانت الهزيمة تامة إلى درجة أن عدداً كبيراً من رجالنا حاولوا السباحة عبر النهر للانضمام إلى دوق برغندي، ولكنهم لم يقدروا على فعل ذلك لأن خيولهم كانت مرهقة، كما غلب عليهم الشعور بالحرارة الهائلة، وهكذا عندما كنا نهبط مجرى الماء باتجاههم رأينا النهر محملاً بالرماح والترسة والرجال والخيول غرقى في المياه.. يتقدمون باتجاهنا في الوقت الذي كنا نمسك بالجسر، وقدم الكونت بيتر أوف بريتاني الذي قطع سيف أنفه وجرى الدم إلى فمه وهو معتل ظهر جواد صغير لطيف ولكنه قذف بلجامه فوق القربوس الذي كان يقبض عليه بكلتا يديه خوفاً من أن يخرجه رجاله الذين كانوا يتبعونه قريباً منه من أجل الراحة، وعندما عبر الجسر الضيق. بدأ أنه متضابق منهم لأنه عندما بصق الدم خارج فمه ظل يصرخ «أيها الرب الطيب! أرأيت من قبل مثل هذه الحثالة».

وعند نهاية النهار ادعى كلا الجانبين النصر حيث ادعى المصريون الذين تقهقروا في ترتيب جيد إلى داخل المنصورة، بفوزهم بتكبيد أعدائهم خسائر فادحة ومنعهم من الاستيلاء على المدينة، في حين اعتبر الصليبيون أنفسهم منتصرين لأنهم قتلوا فخر الدين وكثيرين من رجاله ودمروا معسكرهم وفازوا بموطئ قدم عبر البحر الصغير، غير أن الوقت كان في صالح المصريين وعندما مضت بضعة أسابيع اتضح أكثر فأكثر أنه حتى لو لم يخسر الصليبيون معركة المنصورة، فإنهم على الأقل في خطر خسارة الحرب نفسها، ولم تتحقق الثورة المنتظرة ضد حكم المرأة في حكومة السلطانة في القاهرة التي ترقبها الصليبيون وشاركوا فيها، وفي شباط ظهر في المعسكر المصري ابن السلطان الأخير والوريث وهو شاب اسمه تورانشاه الذي كان يمثل نائباً للسلطان السابق على مسافة ثمانمائة ميل في الجزيرة في وقت موت والده بعد أن نودي به سلطاناً دون إحداث شجار مع زوجة أبيه شجرة الدر.

وأثار وصوله نشاطاً في المصريين، ونظمت بسرعة موانع للمنبسطات المنخفضة في نهر النيل كما دمرت معظم الزوارق التي كانت تنقل المؤن إلى معسكر لويس، أو تم الاستيلاء عليها، وعلى الرغم من أن عدداً قليلاً وصل إلى الداخل لكن الطعام بدأ يقل، وفي شهر آذار تم الاستيلاء على قافلة تزيد على ثلاثين سفينة، ولم يتمكن أحد من الفرار، واتضح إنه إذا بقي الصليبيون حيث كانوا فسيكابدون الجوع، وفي الواقع كان هناك شيء شبيه بالمجاعة في المعسكر وسرعان ما تلت ذلك أزمات أمراض الزحار والتيفوئيد، وفي نسيان اضطر لويس إلى الاعتراف بالهزيمة وبدأ التراجع عن المنصورة، وحالما رأى المسلمون أعداءهم يغادرون المعسكر عند أسوار المدينة انطلقوا في مطاردتهم. وكانت الرحلة بالنسبة للصليبيين كابوساً مزعجاً فمعظمهم مرهقون جداً أو مرضى لا يستطيعون القتال. ورغم أن لويس أبلى بلاء حسناً في قيادة مؤخرة الجيش التي كانت موضع خطر كبير بعد مسير الأيام الأولى فقد سقط مريضاً ولم يعد باستطاعه التحمل في اليوم التالي. وبقي ثمة سبيل واحد

مكشوف بالنسبة لأولئك الذين تولوا القيادة مكانه هو الاستسلام فاستسلموا.

ولم يكن غريباً أن السلطان الشاب تورانشاه ومعه الملك لويس والجيش الصليبي كله كسجنائه، كان متباهياً بنصره، وفي الحقيقة فقد كان لديه كثير منهم إلى درجة أنه لم يدر ما يفعل بهم، وكان الشعور بهذا الحشد الهائل من الأسرى أمراً محيراً، وقد حل مشكلة العدد الأكبر منهم باللجوء إلى حيلة بسيطة بقطع رؤوس ثلاثمائة شخص كل يوم، ورغم أن الملك نفسه ونبلاء آخرون قد هددوا بانتظام بالموت ما لم يوافقوا على مختلف المطالب المرفوعة إليهم، وكان تورانشاه حذراً في تنفيذ حكم الإعدام بالرجال العاديين الذين لا وزن لهم، في حين أبقى على أولئك الذين يمكن أن يفادي بهم لقاء مبالغ من المال، لكنه مع ذلك لم يكن رجل تخطيط بارع، ولذا لم تدم طويلاً أيام انتصاره كما اعتدى بشكل سيء على شجرة الدر، وعادى المماليك بمعاملتهم بغطرسة عرضية لم يفكر بها والد أيوب لإخضاعهم، وكان هذا العمل يتسم بالغباء والخطر، وعندما بدأ في تعيين بعض أصدقائه من الجزيرة في مناصب كان يفكر بها المماليك دوماً لادخارها لأفراد مجموعاتهم المختارة، فإنه ختم بنفسه على ورقة قدره، وقرروا التخلص منه، وقتل بوحشية تامة بعد مأدبة طعام، وقذفت جثته باحتقار في الوحل إلى جانب نهر النيل كما لو أنها فقدت أهميتها أو هي جثة كلب. وكان ثمة محرض رئيسي في جريمة قتل تورانشاه هو مملوك رفيع المستوى من أصل تركي دعي ركن الدين بيبرس البندقداري قدر للصليبين أن يسمعوا عنه الشيء الكثير.

ولم تؤد جريمة السلطان وهو آخر أفراد سلالة صلاح الدين في حكم مصر، إلا إلى شيء بسيط من الاختلاف بالنسبة للإفرنج، واستلم مكان تورانشاه أحد المماليك الكبار متستراً على اغتصابه السلطة بقناع من الشرعية، وذلك بالزواج من شجرة الدر الرهيبة. وتعين على المسيحيين أن يستمروا في المفاوضات من أجل إطلاق سراحهم مع هيئة جديدة من السجانين، ولم يكون في وضع يسمح لهم بوصف الظروف ولكنهم كانوا يمسكون بورقة رابحة مع

كل ذلك، فإن دمياط لم تستلم وبقيت في أيدي حامية تركت هناك من قبل لويس عندما سار الجيش إلى المنصورة، كما بقيت زوجة الملك، الملكة مرغريت هناك أيضاً فقد كانت حاملاً. وبعد ثلاثة ايام من وصول أنباء استسلام زوجها إلى المدينة ولدت صغيرها، وساعدها في عملها فارس قديم كان حسب ما أورده جوان أوف جونيفيل «لا يقل عن ثمانين عاماً وربما أكثر، وفي كل مرة صرخت كان يمسك يديها ويقول «سيدتي لا تخافي إلى هذا الحد. فإني معك» ولدت بأمان صغيرها بمساعدة تلك القابلة البعيدة التوقع إلى حد ما، أخبرت باستعداد رجال الحامية تحت قيادة البيزيين والجنويين للنجاة بأنفسهم بالإبحار بعيداً عن المكان ما دام الوقت متسع لذلك، وأرسلت إلى قادتهم تناشدهم البقاء وعرضت عليهم فكرة إطعامهم جميعاً على حسابها أن هم وافقوا، وأدى اجتماع شجاعتها وكرمها بشكل كاف إلى جعلهم يتراجعون عن قرارهم، وبدونها كانت المدينة مفقودة وكما في الواقع، كان لدى الملك لويس على الأقل دمياط التي يمكن أن يساوم بها حكام مصر، المماليك.

ومع ذلك كان هذا كل ما علمه وأعداؤه عن ذلك، وقد استخدموا ميزاتهم بكل وسائل القوة وأبقوا على سيل من التهديدات ضد حياة لويس وأرواح الآخرين، وفي إحدى المرات اقتحم بعضهم فسطاطة حيث كان الملك وبعض نبلائه القادة ومنهم جوان أوف جونيفيل وسجنوا هناك، وكان في أيدي أولئك سيوف مجردة كما حملوا فؤوس قتالية دانمركية فوق أكتافهم وتحدثوا بصوت عال عن ضرب أعناقهم جميعاً ، وخاف جوان أوف جونيفيل كثيراً إلى درجة أنه سقط إلى الأرض. وأشار بالصليب على نفسه واستعد ليموت في حين ركع حاكم قبرص غوي أوف ايبلين إلى جانبه وقام بالاعتراف بذنوبه، ويسترجع جوان كيف قال الحاكم الخائف «أني أحلك من أية تبعة بقوة كبيرة منّ الرب علي بها» غير أن لويس لم يكن بالرجل الذي يجبن بسبب تلك التمثيلية التحذيرية، كما لم يعد المماليك راضين بخسارة أموال الفدية التي علقوا عليها الآمال للحصول على سجنائهم الهامين أكثر مما كان تورانشاه ولذا

لم يمت أحد منهم، وعندما انتهى التهديد وجد جوان أوف جونيفيل أنه لم يستطع تذكر كلمة واحدة من الاعتراف السريع للحاكم.

وأخيراً عقدت الصفقة ووعد لويس بدفع فدية كبيرة تتألف من أربعمائة ألف قطعة ذهبية مقابل شخصه ونبلائه، وبتسليم دمياط شرط اطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين، وقد حُض على ضمان الاتفاقية بأن يعد بالارتداد عن عقيدته المسيحية أن أخفق في الحفاظ على موقفه من الصفقة، ولكنه رفض صراحة أن يعد بذلك وأثرت شجاعته واستقامته كثيراً في آسريه، وفي الحقيقة، قدموا لابداء الاعجاب بنبل شخصيته وثباته على هدفه إلى حد بعيد، وحتى أنهم في إحدى المناسبات تحدثوا عن دعوته ليصبح سلطان مصر، ويبدو أن الاقتراح لم يصرح به للمرح مطلقاً، وقبله لويس على نحو خطير ليدرسه مع جوان أوف جونيفيل الذي نصحه برفض العرض أن قدم بينما كان الملك يميل إلى قبوله، وفي تلك الحال لم يقدم العرض. ولكنه الجهة الوحيدة التي لم تحفظ موقفها من الاتفاق فهي المسلمون الذين وعدوا بعدم إلحاق الأذى بأي شخص مسيحي ترك وراءهم في دمياط عندما سلمت إليهم، ومع ذلك قام المماليك بذبح بعض الإفرنج الذين كانوا مرضى عاجزين عن الحركة عندما غادر الآخرون.

وحالما أطلق سراح لويس عاد إلى عكا حيث أعلن عن عزمه على البقاء في الممالك الصليبية، رغم توسلات أمه في فرنسا بالعودة إلى مسقط رأسه، ورغم أنه عزا الهزيمة المفجعة لحملته ضد مصر إلى رغبة الرب الرؤوف في تلقينه درساً في التواضع، فقد أدرك تماماً مدى خسارتها فقد ذهبت لقا هذه الحملة أرواح آلاف من البشر، بينما تم التخلي عن المماليك الصليبية دون دفاع تقريباً، ولن يسمح له إدراكه بهجرها في ساعة حاجتها له، وبالفعل، فقد كانت حاجتها أقل شدة مما كان متوقعاً لأن ثورة المماليك في مصر وقتل السلطان تورانشاه حفيد صلاح الدين لم يتم تلقيهما بشكل حسن من قبل أفراد الأسرة الأيوبية التي كانت لا تزال تحكم في دمشق وأماكن أخرى، وأعلنوا

الحرب على المجرمين من أقربائهم وأقحموا العالم الإسلامي مرة ثانية في جو الانقسامات والطموحات المتضاربة، وكان لويس رجل حكم بما فيه الكفاية ليعمل على الاستفادة من هذه الخلافات بين أعدائه الذين تنافسوا مع بعضهم بعضاً من أجل تأييده كما كان لويس بعيد النظر وواسع الأفق في التفكير بما فيه الكفاية ليرى أن المستقبل يسير مع مصر ونتيجة لذلك، فقد عقد حلفاً مع خصومه القدامى المماليك. وفي مقابل ذلك أطلق سراح جميع السجناء الإفرنج الباقين، كما ترك لويس ينسى نسف الفدية الضخمة التي كان قد وعد بها.

وبعد أربع سنوات قام بعقد حلف مع الحشيشة وكحاكم لا ينازع في الممالك الصليبية قام بترميم التحصينات في كل من عكا وحيفا ويافا وقيسارية في الوقت الذي حاول فيه باستمرار إقامة علاقات وروابط مع المغول، واضطرت الأحداث في الوطن الام لويس إلى العودة إلى فرنسا، فأبحر في 24 نيسان 1254 وبعد رحلة اكتنفتها الأخطار من جميع الأنواع وصل أخيراً إلى فرنسا بأمان في شهر تموز، غير ان ذكرى الأرض المقدسة كانت ما تزال تجري في دم عروقه، ولم ينسها بعد، وكان يرسل بعض الأموال إلى جماعة صغيرة من الجنود الفرنسيين هناك، وظل يحلم بالعودة في حملة صليبية أخرى غير أن الاضطرابات في الوطن أدت إلى استحالة ذلك حتى وقت متأخر، وفي 1267 عندما أصبح لويس في الرابعة والخمسين متدهور الصحة شعر أنه مستعد من جديد للقيام بمغامرة شرقية أخرى، واستغرق الإعداد لها وقتاً طويلاً. ومع ذلك لم يتمكن من الابحار حتى سنة 1270. ولم يكن معلوماً ماذا سيحدث لو أنه وصل إلى الممالك الصليبية. واقنعه أحد اخوته واسمه شارل أوف انجو بالابحار إلى تونس ضد أميرها قبل أن يتابع مسيره إلى الأرض المقدسة، وكان لدى شارل طموحات واسعة مع تخطيطات سياسية للسيطرة على مقاطعات هوهنستاوفن في جنوب إيطاليا وصقلية، كما كان في حرب مع أمير تونس في إحدى المراحل من أجل التوسع في خططه في البحر

المتوسط، وأقنع شارل لويس أن الحاكم التونسي كان مستعداً للتحول إلى العقيدة المسيحية، وأن عرض قوة سيكون كافياً للفوز بحلف له أهمية كبيرة في شأن استمرار الصراع بين المسيحيين والعالم الإسلامي، وترك لويس نفسه يقتنع بصحة كلام أخيه ضد نصيحة أصدقائه مثل جوان أوف جونفيل وأبحر مع جيش كبير في الأول من تموز من ايجز مورتز وألقى مرساته قرب موقع المدينة القديمة في قرطاج بعد ثمانية عشر يوماً في أوج حرارة الصيف الافريقي، التي لا تطاق، وانتشرت الأوبئة بين الإفرنج في الأسطول المسيحي مثل النار في الهشيم، وعندما وصل كونت منطقة انجو بعد اسبوع مات لويس، وقيل أن الكلمة الأخيرة التي لفظ بها كانت القدس القدس.

obeikandl.com